من مـــــذكراته

للأديب أحمد الطاهر

خفقت إليّ مع الصباح ، وحيتني بتحيته ، وعليها من الثياب سواد ، فرددت عليها التحيــة فى تلطف ورعاية ورفق ، وجلست صامتة واجمة خائرة النفس منهوكة القوى شاردة الفكر . ثم أخذت تجيل النظر فى المكان الذى احتوانا ، وأخذتُ أختلس النظر اليها فاذا هى تنظر إلى الأرض ، ثم ترفع البصر الى السماء ثم تتجه إلى بنظرة وادعة حزينة ، وفى هــذه النظرات الثلاث تعبير صادق عما يختلج فى نفسها من المعانى : من تفكير عميق فيما نزل بها من بأساء ، إلى توســل إلى الله بالصبر والرضا بالقضاء ، إلى رجاء فيمن تزور ليدفع عنها بعض هذا البلاء

— ثم قالت : « إنى أعلم ما كان بينك وبين زوجى رحمه الله من صداقة ووفاء وإخلاص ؛ ولقــد ذكر لى فيما كان يذكر من شأنه أنك كنت مثابةً له فى الرأى ، وعوناً فى التــدبير ، ونصيراً فى الشدة ، أليس كذلك ؟ »

— قلت : « نعم كنا كذلك ، وكنت أجد فيه ما تذكرين لى . رحمه الله ، وطيب ثراه . »

— قالت : « ما أفزعنى اليك اليوم وفى هذا الصباح الباكر إلا ما يحز فى قلبى حزاً ، ويعصر فؤادى عصراً ، مما أجد من هى وهم الناس : فأما هى فهو الذى تعرفه والذى إن أخفاه لسانى أعلنته ثيابى ، وأما هم الناس وما أحمل منه ، فذلك فيما أرى فيهم من قلة الوفاء ، وخراب الذمم ، وتحجر الأكباد ، وضيعة الأخــلاق : فلقد كنت أسمع من والدى ووالدتى — رحمهما الله — أن الناس فى العهد الغابر كان الواحد منهم ينطق بالكلمة فاذا هى بينه وبين صاحبه عهد لا ينقض ، وميثاق لا يحل ، وإلُّ لا ينكث به ؛ أما اليوم فما أرى الناس إلا عن ذلك صادفين : يقول الواحد منهم ما يقول ، ويعد بما يعد : فلا يقام لقوله وزن ، ولا يحسب لوعده حساب ، ما لم يسجل قوله ووعده فى كتاب ، بل لقد ينكرون ما خطت أيديهم فى الكتب ، ولو شهد عليهم شهود ، ولهم فى ذلك طرائق وحيل . هذا زوجى — رحمه الله — قد أقرض فلاناً مائة جنيه ، ولست أدرى إن كان قد كتب بها صكا أم استوثق زوجى من صدق وفائه بلسانه ، وقد ألحت علىّ الحاجة والوفاء لهذه البنت اليتيمة فطالبت الذى عليــه الحقُّ بالحقّ : فطلنى ، ثم ألححت ، فردنى ، ثم رجوته فصدف عنى ، ثم توسلت إليه فنهرنى ، وما وجدت منه الا إنكاراً وجحوداً ، وجفاءً وصــدوداً . ولــا رجعت من عنده بخيبة الرجاء ، واليأس من الوفاء ، اندفعتُ أهدده وأتوعده برفع الأمر إلى القضاء . فأجابنى بقوله : (وهل تحت يدك صك بهذا الدين ؟) . طار رأسى ، وذهبت نفسى شعاعاً ، وأحسست كأن الدنيا تضيق بى حتى لا تتسع إلا لعنق تعصره عصراً ، وما وجدت ما أدفع به حقه وإنكاره . لذلك جئت إليك بجملة من أوراق المرحوم لعلك واجد فيها صكا أو سجلاً بهذا الدين أو ما يغنى عن الصك والســجل . أرأيت خراب الذمم ؟ أرأيت قلة الوفاء ؟ أرأيت نكث العهود ؟ أرأيت الى الناس لا يستوثقون باللسان الحى الذى هو من صنع الله ، ويستوثقون بالورقة الخرساء التى هى من صنع الانسان ؟ رحماك اللهم رحماك ! ! »

— قلت : « خلى عنك يا أختاه . فلمثل هذا نزلت حدود الله . أما سمعت قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجلٍ مُسَمّى فاكتبوهُ ، وليَكتُبْ بينَكُمْ كاتبٌ بالعَدْلِ ، ولا يَأْبَ كاتبٌ أن يَكتُبَ كما علَّمهُ الله ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الذى عليه الحقّ وليتّقِ اللهَ ربَّهُ ولا يَبْخَسْ منه شيئاً .) »

— قالت : « سبحان الله العظيم ! هذا كلام أزلى قديم وكأنما نزل لأهل هذا العهد الحديث ، بل لكأنما نزلت هــذه الآية لتكون فيصلاً بينى وبين هذا المدين . »

— قلت : « وفى هــذا وفى مثل هذا تجدين إعجاز القرآن الحكيم »

ودفعت الى بالأوراق فنشرتها ونظرت فيها ورقة ورقة وهى مطرقة مغرقة فى التفكير . وما انتهيت منها إلى ورقة أطلت فيها النظر حتى رفعت رأسها عن يدها ونظرت إلى متلهفة وقالت : « أوجدت الصك ؟ »

— قلت : « لا . ولكنى وجدت ورقة لعلها من مذكرات زوجك رحمه الله — وبودى أن أقرأها لك فستجدين فى سماعها

عزاء وروحاً . وستجدين زوجك فيها يتحدث إلى نفسه بخواطره ولكنه يسوق إليك وإلى ابنتك الحديث »

— قالت : « اقرأ » . . . . فقرأت :

« ما أسعد الانسان المطمئن ! وما أحلى الطمأنينة فى كل شيء ، هذه هى السعادة حقاً ، وما أشقى الانسان الحائر المضطرب ! وما أمر الحيرة والاضطراب فى أى شأن من شؤون الحياة ! هذا هو الشقاء بعينه ، ولست أدرى لم حار الفلاسفة والمفكرون فى تعريف السعادة واختلفوا ، وما لهم لا يقولون إن السعادة هى الطمأنينة ، وما لهم لا يستقرون إلى أن الطمأنينة والسعادة مترادفان يفهم من أحدهما ما يفهم من الآخر ؟ . أغلب ظنى أن الفلاسفة والمفكرين يتسامون فى التفكير ويحلقون فى أجواء البحث فتدق عن أبصارهم هذه الحقائق البسيطة . السعادة هى الطمأنينة والشقاء هو الفزع

هأنذا أخرج من بيتى صباحا أعدو إلى عملى ثم أروح وقد أديت العمل على خير ما يؤدى الواجب ويحمد لى الناس أداءه ويرضى ضميرى عن أدائه . فأطمئن ولا يفزعنى عن هذه الطمأنينة شيء من الأشياء فلم لا أكون سعيداً ؟ ألقى الناس : منهم الصديق ومنهم العدو ، ومنهم من لا تربطنى به صلة وثيقة ، ومنهم الكبير ومنهم الصغير ، فيلقانى كل واحد من أولئك باسماً مصافحاً لا يسألنى عن شأنى ولا أسأله عن شأنه إلا بمقدار ما تدعو اليه العلاقة التى بيننا فلا يكون سؤالى وسؤاله الا فى رفق ولين ورغبة فى العون إن كان بى أو به حاجة الى العون . وإن لا نتساءل عن شيء فما يكون بينى وبينه إلا التحية وردها . فأنا بين هؤلاء وهؤلاء مطمئن وادع لا يفزعنى عن طمأنينتى شيء من الأشياء . فلم لا أكون سعيداً ؟

وتمضى الأيام والأسابيع والأشهر وما شاء الله من أقسام الزمن وأنا أغدو وأروح بين الناس وأختلف الى ما يختلفون اليه من شؤون الحياة وأنا واجد فى جسمى هذا النشاط وهذه القوة ، لا يعوقنى فى سبيلى مرض ولا تقعدنى علة ، فأنا مطمئن الى صحتى مادمت صحيحاً ، ولا يفزعنى عن هذه الطمأنينة شيء من الأشياء ، فلم لا أكون سعيداً ؟

وأخلاف الرزق فى الحياة تصل الى من طريق كدى وجهدى وما ترك الوالدون من موارد الرزق للأبناء تصل اليهم فى سعة أو فى ضيق وأنا بذلك راض والى ذلك مطمئن : لا يفزعنى عن طمأنينتى شيء من الأشياء . فلم لا أكون سعيداً ؟

وأنا فى كل يوم من أيام حياتى أؤدى الى الله والى الناس ما يجب على من الشكر والبر بقدر ما أستطيع وكيفما يجب : لا يصدنى عن ذلك صاد ولا يصدف بى عنه صادف ، فأنا مطمئن الى علاقتى بالله وبالناس لا يفزعنى عن الطمأنينة مفزع . فلم لا أكون سعيداً ؟

أما إذا لقيت فى عملى نصباً وعناء ، أو أحسست من نفسى بنفسى عجزا عن أدائه ، أو قصوراً عن وفائه ، فهنا يكون الفزع وهنا الخروج عن الطمأنينة ، وهنا الشقاء

وإن رأيت الناس يمدون إلىّ يد السوء ، أو لسان السوء ، أو عين السوء ، فما أشد ما ألقى من الفزع والجزع ، وهنا الشقاء

وإن رأيت معاول المرض تعمل فى جسمى ، وتهد من قواى ، وتبعث فى هذا الجسم رسالات من الألم شديدة أو غير شديدة ، فهنا الفزع وهنا الشقاء

وإن رأيت ....وإن رأيت ... مما يحول بينى وبين السكينة ويوقعنى فى الفزع والاضطراب ، فهنا وهناك الشقاء

والسعادة والطمأنينة غاية ليس وراءها من شيء ، ولا يجد السعيد المطمئن فى مهاد السعادة ما يبعثه على التفكير فى أسبابها ، ومن أين أتت اليه ، وأى السبل اتخذت اليه ، لأنها اطمئنان واستقرار ورضا ، وسبيل لا عوج فيه ولا التواء

أما الشقاء — أعاذنا الله منه — فلا يكاد ينزل بالمرء حتى يفسد عليه نفسه ، ويلقى بالحيرة فى ضميره ، فلا تهدأ النفس عن الاضطراب بين علله وسبل الخروج من مضائقه . ولا يهدأ العقل عن التفكير فى هذه العلل وهذه السبل ، ولا يهدأ الضمير عن أن يتخذ لنفسه أشكالاً وأوضاعاً يسميها الناس وخزاً وتأنيباً وندماً وقلقاً وتبرماً وحسرة ؛ وما الى ذلك من الأسماء تختلف باختلاف أنواع الفزع وأسباب الشقاء . وهنا يكون الشقى بين شقى الرحى : شقائه الذى نزل به واضطراب نفسه وعقله وضميره فى مبعث الشقاء وسبل الخروج منه . وكثير من الناس يزيد فى شقاء نفسه بنفسه حين يخطئ السبيل التى تؤدى إلى الخلاص من الشقاء ، أو حين يضل عن هذا النقب الصغير الذى نفذ اليه منه البلاء ، أو حين يلتمس الراحة من

العناء فيما لا يزكو بالعاقل التماس الراحة فيه

وما من سبيل لأن نعدد للناس حصرا أسباب الشقاء. ولا سبل الخلاص من الشقاء، ولكنني وجدت سبلاً ثلاثاً، كلما أفزعت عن طمأنينة السعادة إلى مضطرب الشقاء لجأت اليها فوجدت فيها عزاء وشفاء وهناء

* * *

أخلو إلى نفسي فأصل بينها وبين الله بالتفكير في خلقها، وفي الحدود التي وضعها الله بين العبد وربه، وبين العبد والعبد. وفي تحديد حياتها بأجل تنتهي عنده، وأقيس ضعفها بقوة خالقها، وحقها في الحياة بحق من أوجدها في الحياة، وأتبين ما رسم الله لعباده من مناهج وطرائق تؤدي إلى السعادة العاجلة في الدنيا، أو الآجلة في الأخرى، وما فرض على العبد أن يأخذ به نفسه إذا اشتد به الضيق، أو سد في وجهه الطريق، ثم أرجع الى كتاب الله أقرأ فيه وأتبصر في معانيه، فأجد فيه للنفس شفاءها، وللروح غذاءها، وأجد قوة على احتمال الشقاء، وسبلاً للخلاص من البلاء، ويهون في نفسي كل ما هالها، ويصغر في عيني كل ما تعاظمها، فما ألبث حتى تستشعر نفسي شيئاً من الصبر والرضا، ويشع في أعطافها وحواشيها نور من الأمل والرجاء، ثم تطمئن الى ما تجد، ثم تخلو من الهم، وإذا أنا هادئ وسعيد

* * *

أرجع الى بيتي فتلقاني ابنتي الصغيرة متهللة مستبشرة، فأحملها بين يدي وأقبلها وتمضي تحدثني بما أفهم ولا أفهم من لغوها، ثم تسمي بيني وبين أمها، ويطول لغوها وسعيها، ثم تنظر الى كل منا وعلى وجهها الصغير آيات البشر بادية، وتحاول أن تشركنا في هذا المرح الذي تشعر به، وتود لو تفيض علينا منه. فيعز علي أن أعذب هذه الطفلة البريئة بعبوسي، ويكبر علي أن أكدر صفوها بوجومي، وأن أحمل اليها والى أمها همًّا لا قبل لهما به ولا يد لهما فيه، ولا حيلة لهما في صرفه عني. فأتناسى ذلك الهم الذي كان مبعث شقائي ثم أنساه، وأمزق عن وجهي غشاوة العبوس التي كانت تغشاه، ثم أمحوها محواً، وإذا على الوجه ابتسامة تكون قلقة حائرة أولا، ثم تتصل بالنفس فتستقر وتصدر عن إحساس أخيراً، حتى إذا انصرف عن النفس بعض همها الذي ملكها خلت إليّ هذه النفس تحدثني ببعض ما يجب على الرجل نحو أبنائه وأهله. وتبسط لي كيف يجزى الطفل على ضعفه وطفولته وضعف حيلته، وكيف تجزى الزوجة على أنوثتها الضعيفة، وأمومتها السامية الشريفة، ورعايتها لزوجها ووفائها له. فأذكر إذ ذاك العطف والحنان، والرعاية، والوفاء، وعرفان الجميل، وحسن التقدير، ويذهب هذا كله بما بقي في نفسي من هم، وإذا أنا بعد هذا وبهذا مطمئن وسعيد

وثالث هذه السبل هو هذا القلم الذي أكتب به: أصل بينه وبين نفسي فاذا ما فيها من الهم والأسى ينساب الى قناته في سهولة ورفق واطراد، وإذا هو ينثر ما في النفس على الورق ألفاظاً وأسطراً وصحائف. وما أزال أكتب حتى يقف القلم، فأنظر الى نفسي فاذا القلم قد استنزف كل ما فيها من الهم لم يترك بقية ولا ذمامة. فأقرأ ما كتبت وأقيسه بما كان في نفسي، فاذا هو هو لا يزيد عنه بمقدار ولا ينقص عنه بمقدار. وإذن لقد أفرغت نفسي من الهم واطمأننت وإنني لسعيد

ولعمري إن هذه السبل الثلاث لهي خير ما اهتديت اليه من سبل التخفيف من همي. وأنا فيما يحزبني من الأمر أتخذ سمتي اليها مجتمعة أو متفرقة، فأجد فيها راحة وشفاء واطمئنانا وسعادة. ولقد اتخذت سمتي الليلة الى هذه السبيل الأخيرة «سبيل القلم» فكتبت ما كتبت وأحس أن ليس في نفسي أكثر مما كتبت

وإذن لقد فرغت نفسي من همها واطمأنت وإنني لسعيد اهـ»

* * *

وما انتهيت من القراءة حتى نظرت الي باسمة راضية، وتبددت عن وجهها سحابة الحزن والأسى وقالت: «أي والله، لهذا خير عندي من الصك ألف مرة. أكان رحمه الله يجد العزاء في كتاب الله، وفينا، وفي قلمه؟ قل لي بربك بم أجزيه عن فضله وبره؟ وماذا أفعل بهذه الورقة وهي فيما أرى سجل حياته وعهده الكريم بين الله وأهله ونفسه»

— قلت: «أكرميها»

— قالت: «وكيف؟»

— قلت: «تحفظينها عندك ذخرا، وأنشرها لك في (الرسالة) ذكرى»

البرنباشي أحمد الطاهر